الأردن الحديث من الثورة إلى المملكة
الثورة العربية الكبرى: الحقيقة والأهداف

يربط الأردن بالثورة العربية الكبرى روابط وثيقة جداً، تتمثل في أن الدولة الأردنية قامت منذ اللحظة الأولى على مبادئ هذه الثورة الداعية إلى الوحدة والحرية والاستقلال، كما أن مؤسس الدولة هو ابن زعيم الثورة وأحد قادتها البارزين، إضافة إلى أن قيادة الأردن الشرعية القائمة والباقية بإذن الله إلى يوم الدين، تعد استمراراً لقيادة الثورة ووراثة لرايتها ومبادئها العربية الإسلامية التي تجسد قيم الأمة ومُثلها العليا، وطموحاتها في النهضة والحياة الفضلى.

وعلى الرغم من مرور قرن من الزمان على انطلاق الثورة برسالتها العربية الإسلامية السامية، لا تزال هناك حالة من القصور في فهم حقيقة الثورة العربية والتي من شأنها أن تشكل أمراً واقعاً عند العديد من الكُتَّاب والمفكرين وأحياناً تبرز هذه الصورة في المناهج الدراسية، الأمر الذي انعكس سلباً على منظور أبناءً الأمة للثورة ظانين أنها نتيجة للفهم الخاطئ – والذي رسخه العديد من أصحاب الأهواء والادعاءات والأقلام المأجورة، الذين يسعون على الدوام إلى تشويه حقيقة نضال القيادة الهاشمية المجيدة وتضحياتها – ثورة ذات طابع قومي صرف سعت إلى إسقاط الدولة العثمانية الإسلامية وساعدت على تهيئة الأوضاع لسيطرة القوى الاستعمارية.

وهذه الطروحات في الواقع لا تتفق بأي حالٍ من الأحوال مع حقيقة فكر الثورة العربية الكبرى العربي الإسلامي الأصيل.

فكما هو معروف لدى جميع المؤرخين في التاريخ الحديث أنّ أُمراء مكة الهاشميين أمراء البلد الحرام هم أول من اعترف طوعاً بسيادة الدولة العثمانية على الولايات العربية منذ بداية الحكم العثماني عام (١٥١٧)، وإعلان الولاء للسلطان العثماني على اعتبار أنه أصبح خلال هذه المرحلة وارث منصب الخلافة (وإن لم يلقب بهذا اللقب) والمدافع عن الإسلام ضد الأطماع الاستعمارية وخادماً للحرمين الشريفين، وهذا ما يتضح من خلال قيام شريف مكة أبو نمي في ذلك الوقت بتسليم مفاتيح الكعبة للسلطان سليم الأول مقراً بذلك سيادته على البلد الحرام، إيماناً منه بمقدرة هذا السلطان على جمع كلمة المسلمين وحفظ وحدة العالم الإسلامي الذي أصابه الضعف والتراجع مع نهاية الحكم المملوكي، الأمر الذي جعله مطمعاً للقوى الاستعمارية[١].

كما تؤكد المصادر أنه طوال التاريخ العثماني سعى أشراف مكة من بني هاشم بكل جدية إلى تفعيل هيبة الدولة وسيادتها في جميع المناطق التابعة لحكمهم في الجزيرة العربية من منطلق إيمانهم بضرورة الحفاظ على وحدة الرابطة الإسلامية، هذا الإيمان الذي تشكل بفعل فهمهم الحقيقي لتعاليم الشريعة الإسلامية ورسالة جدهم الأعظم المصطفى عليه السلام. وبالمقابل تعامل سلاطين آل عثمان دون استثناء بكل إجلال وتقدير مع الأشراف ومنحوهم أهمية خاصة نظراً لمكانتهم الدينية المتميزة في أنحاء العالم الإسلامي كافة[٢].

أ. الجذور الفكرية للثورة العربية الكبرى:

لقد أكدت جميع الدلائل بأن الثورة العربية لم تكن ثورة قوميّة بقدر ما كانت عربيّة إسلاميّة، هدفها إعادة بعث مجد دولة الإسلام وإحيائه، كما كان في عهد النبوّة والسلف

---

(١) أحمد الزيني دحلان، أمراء البلد الحرام، الدار المتحدة للنشر، (دون تاريخ)، ص ٣٥٧.

(٢) سليمان الموسى، الشريف حسين، المجلة الثقافية، عدد ٢، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٨٧، ص ١١٦-١١٧.

الصالح. كما أن الثورة لم تكن في الوقت نفسه موجهة ضد الدولة العثمانية دولة الإسلام الكبرى في ذلك الوقت، إنما كانت موجهة ضد استبداد حزب الاتحاد والترقي الحاكم الذي يعدّ أول من عبث بسلامة الدولة وإخراجها من نطاقها الإسلامي الذي سار عليه معظم السلاطين العثمانيين العظماء منذ عهد السلطان سليم الأول عام (١٥١٧م) إلى نهاية عهد السلطان عبد الحميد الثاني عام (١٩٠٩م)، الأمر الذي جعل منها دولة الإسلام الكبرى وارثة دولة الخلافة[١].

لقد جاءت الثورة العربية الكبرى تتويجاً لحركة طويلة من الوعي واليقظة التي أخذت تتبلور ملامحها في المشرق العربي منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر التي تجسدت في طروحات وآراء عدد من المفكرين الداعين إلى الإصلاح والنهوض بالدولة التي أصابها الضعف بسبب فساد الإدارة العثمانية واستمر العرب في دعوتهم الإصلاحية والتمسك بوحدة الدولة التي عدّوها دولتهم كما هي دولة الأتراك إلى عام (١٩١٥)[٢] حيث اتجهت الحركة العربية نحو إعلان الثورة والاستقلال نتيجة لفشل جميع جهودها الإصلاحية وتمادي الاتحاديين بسياساتهم الاستبدادية خاصة. بعد أن نجحوا بالاستيلاء على السلطة والاستبداد بالأمر من دون السلطان وقيامهم بتوريط الدولة بالدخول إلى جانب الطرف الأضعف في الحرب العالمية الأولى، عندها رأى زعماء الحركة العربية ضرورة اتخاذ إجراءات سريعة لمواجهة الأوضاع القائمة، للحفاظ على وحدة الأراضي العربية وسلامتها، التي كان من المحتم أن تقع تحت سيطرة الحلفاء عند انتهاء الحرب نظراً لتفوقهم العسكري[٣]. لذا قررت الزعامات العربية الاستقلال من تبعية الحكومة التركية

---

(١) سليمان الموسى، الشريف حسين بن علي باعث النهضة العربية الحديثة، وزارة الثقافة، عمان، ١٩٨٩، ص ٨.

(٢) أمين سعيد، الثورة العربية الكبرى، مجلد ٢، القاهرة، ١٩٣٩، ص ١٢٢.

(٣) سليمان الموسى، الحركة العربية ١٩١٨-١٩٢٤، بيروت، ١٩٧٠، ص ١٢٢.

الاتحادية وإعلان قيام دولة خلافة عربية إسلامية تتبع زعامة الأمة الشرعية ممثلة بالقيادة الهاشمية في مكة وفقاً لما تم الاتفاق عليه في ميثاق دمشق عام (١٩١٥م)، ولما كان هذا الأمر يحتاج لمساعدة دولية نظراً لضعف العرب العسكري، كان من الطبيعي أن ينضموا إلى طرف الحلفاء وفق شروط لا تمس سيادة بلاد العرب واستقلالها، كما أكدت ذلك مراسلات حسين مكماهون[١].

ب. سبب اختيار العرب للشريف حسين زعيماً للثورة:

يرجع السبب في اختيار الشريف حسين زعيماً للثورة إلى مجموعة من العوامل ترتبط بأهداف الثورة العليا التي حددتها الزعامات العربية بموجب ميثاق دمشق عام (١٩١٥)، والتي لا يمكن أن تتحقق إلا من خلال المزايا التي يتمتع بها الشريف حسين بصورة منفردة عن غيره من الزعامات وقد تمثلت هذه المزايا بما يلي:

١. الشرعية الدينية والتاريخية والسياسية للقيادة الهاشمية في الحكم، تبعاً لنسبها إلى الدوحة النبوية الشريفة التي تحظى بالاحترام والتقدير عند العرب والمسلمين، وهذا يعدّ مطلباً أساسياً لتحقيق هدف الثورة المتمثّل بإقامة دولة الخلافة، وفقاً لما أكده جميع الفقهاء المسلمين استناداً إلى النصوص الفقهية وواقع الممارسة العملية على مر التاريخ الإسلامي والذي لم يخرج من النسب القرشيّ، والشريف حسين هو قرشيّ هاشميّ من آل البيت ينحدر من نسل الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه[٢].

---

(١) خيرية قاسمية، الحكومة العربية في دمشق، ١٩١٨-١-٢٠، دار المعارف، مصر، ١٩٧٥، ص ٢٣.

(٢) جورج أنطونيوس، يقظة العرب، ط١، بيروت، ١٩٦٢، ص ١٤٩.

٢. منصبه كشريف لمكة: الذي أعطاه الحق الشرعي بإسقاط السّمة الإسلامية عن الحكومة الاتحادية وإعطاء الشرعية الدينية لانطلاقة الثورة، لكونه صاحب الولاية الدينية داخل الدولة وفق التقاليد العثمانية.

٣. إيمان الشريف حسين الكبير بحقوق العرب ومساعيه الجريئة مع الدولة العثمانية لصيانة هذه الحقوق، مما جعله في كثير من الأحيان في عداء مع أركان السلطة من الوزراء والولاة.

٤. خبرته السياسية الواسعة وميزاته القيادية والسياسية والعسكرية التي اكتسبها من خلال تتلمذه على أيدي العديد من كبار علماء الحرم المكي وتقلده العديد من المناصب الدينية والعسكرية والسياسية داخل الدولة، بشكل أدى إلى صقل شخصيته القيادية ليظهر أفضل قيادة عربية إسلامية متميزة تتزعم المشروع العربي النهضوي الإسلامي خلال هذه المرحلة[١].

ج. موقف الشريف حسين من الدولة العثمانية ومطالب العرب قبل إعلان الثورة:

لقد كان للدور الرئيس المتميز الذي لعبه الشريف حسين وأنجاله في حركة النهضة العربية، أن وُضعوا على رأس قائمة الرجال الذين أسهموا في صياغة التاريخ العربي الحديث وبلورة آمال الأمة وتجسيدها على أرض الواقع وإثبات وجود الإنسان العربي بعد تهميشه من السلطة العثمانية لأكثر من أربعة قرون متوالية.

ومنذ أن تسلم الشريف حسين منصب شرافة مكة عام (١٩٠٨م) سعى بكل جدية وإخلاص إلى مؤازرة سياسة السلطان عبد الحميد الثاني التي كانت تقوم على أساس حفظ

---

(١) سليمان الموسى، الحركة العربية، ص ٣١.

الرابطة الإسلامية داخل الدولة كأساس لقوة الدولة واستمرارها رافضاً في الوقت نفسه سياسة الاتحاديين الطورانية المعادية للسلطان والداعية إلى تغليب العنصرية التركية على مناحي الدولة كافة، هذه السياسة التي أدت بالنتيجة إلى إبراز النعرات القومية الانفصالية لدى القوميات الأخرى داخل السلطنة العثمانية، مما أساء للدولة بشكل عام وللسلطان بشكل خاص[1].

وهذه الرؤية المتوازنة التي تبناها الشريف حسين اتضحت منذ بداية تسلمه منصب شرافة مكة من خلال رده على وفد حزب الاتحاد والترقي الذي قدم للسلام عليه عند وصوله الحجاز بهدف استمالته إلى جانبهم ضد السلطان وسياساته حيث قال مخاطباً رئيس الوفد: "لقد حظيت بمقام أسلافي وآبائي على الشريطة التي بايع بها الشريف أبو نمي السلطان سليم الأول، وأن هذه بلاد الله لا تقوم فيها غير شريعة الله المشتملة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي حريصة على الاحتفاظ بحقها"[2].

وهذا ما يؤكد بشكل قاطع مدى تمسك الشريف حسين بالحفاظ على وحدة الرابطة الإسلامية داخل الدولة والولاء للسلطان عبد الحميد بصفته ولي أمر المسلمين الشرعي ورفض سياسة الاتحاديين التي من شأنها تدمير الدولة كما أثبت واقع الأحداث فيما بعد.

ومن الأدلة العملية التي تؤكد حرص الشريف على الولاء للدولة رغم العداء الذي كان يكنه له الاتحاديون، التزامه بتنفيذ السياسات التي من شأنها الحفاظ على هيبة الدولة العثمانية وسيادتها، ومحاربة كافة القوى التي سعت إلى التمرد على سلطتها مستغلة حالة

---

(١) طالب محمد وهيم، مملكة الحجاز ١٩١٦-١٩٢٥، ط١، مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة، ١٩٨٢، ص ١٧.

(٢) الملك عبد الله بن الحسين، الآثار الكاملة، الدار المتحدة للنشر، بيروت، ٧، ١٩٨٥، ص٦٥.

الضعف التي تمر بها الدولة مثال ذلك، آل سعود في نجد عام (١٩١٠م)، والإمام الإدريسي في عسير عام (١٩١١م)، والإمام يحيى حميد الدين في اليمن عام (١٩١٢م)[١].

لذا، لا بد من التمييز هنا ما بين موقف الشريف حسين من الدولة والسلطان الذي امتاز بالتأييد ومن موقفه تجاه سياسة الاتحاديين الذي امتاز بالعداء.

وقد كان للمزايا الدينية والسياسية والقيادية التي يتمتع بها الشريف حسين وفكره السياسي المتوازن، دور كبير في الأوساط العربية، حيث برز كأكبر قيادة لها المقدرة على فهم وإدراك واقع الأحداث القائمة ومتطلبات المرحلة القادمة، وتحقيق آمال الأمة وطموحاتها في إطار دولة إسلامية كبرى.

من هنا توجهت له أنظار العرب إليه كزعامة دينيّة وقيادة سياسيّة، وعلى الرغم من تزايد عداء الاتحاديين للشريف حسين نتيجة للمكانة التي أصبح يتمتع بها في الأوساط العربية وسعيهم إلى التخلص منه، إلا أنه استمر على نهجه سالف الذكر رافضاً فكرة الثورة والخروج من تبعية الدولة العثمانية حتى منتصف عام (١٩١٦م)، حيث اتضحت له الأسباب الشرعية الموجبة للثورة خاصة بعد انقلاب الأوضاع في الدولة العثمانية من دولة إسلامية يقف على رأسها السلطان العثماني صاحب الشرعية، إلى دولة عنصرية تحكمها جماعة يهودية علمانية مشبوهة سعت في كل المناسبات إلى تشويه الإسلام والإساءة للمسلمين[٢].

لذا يمكن القول بكل تأكيد إن الثورة العربية لم تسعَ إلى إسقاط الدولة العثمانية الإسلامية، بل هي ثورة عربية إسلامية سعت بالدرجة الأولى إلى إعادة بعث دولة الخلافة الإسلامية وإحيائها بشرعيتها الدينية والتاريخية وفق ما يقره الفقه الإسلامي وواقع

---

(١) أحمد عفيف، الشريف حسين والدولة العثمانية قبل إعلان الثورة، مجلة الأقصى، عمان، ٢٠١٦، ص ٤٩.

(٢) عماد عبد العزيز، الحجاز في العهد العثماني، ١٨٧٦-١٩١٨، دار الوراق، بغداد، ٢٠٠٦، ص ٢٩.

الممارسة الإسلامية العملية، كما تأكد ذلك في عهد الدولة الراشدية والأموية والعباسية، وقد أكّد ذلك الشريف حسين بقوله: "نحن نقاتل من أجل مهمتين شريفتين هما حفظ الدين وحرية الأمة"[1].

وهذا ما تأكد أيضاً من خلال منشور الشريف حسين الذي أعلنه يوم (٢٥/ شعبان/ ١٣٣٤هـ–٢٦/ حزيران/ ١٩١٦م)، يوضح فيه أسباب إعلان الثورة ومرتكزاتها حيث قال: "حسبنا برهان على ما تكنه صدورهم (أي الاتحاديين) نحو الدين والعرب رميهم البيت العتيق الذي أضافته العزة الأحديّة لذاتها السبحانيّة في قوله تعالى: (وطهر بيتي للطائفين)... بقنبلتين من قنابل مدافعهم... وما زالوا كل يوم، حتى تعذر على العباد القرب من البيت. وفي هذا من الاستخفاف والازدراء للبيت وعظمته وحرمته...".

المملكة العربية السعودية في عيون وآراء المصورين

قوات عربية تركب البواخر من ميناء الوجه، المرفأ الصغير الواقع على البحر الأحمر، خلال «الثورة العربية» ضد الحكم العثماني، ١٣٣٦ هـ / ١٩١٧ م

(١) أحمد عفيف، الملك عبد الله بن الحسين وقضية الوحدة السورية الكبرى، ط١، دار جرير، ٢٠٠٦، ص ٥٠.

وقد بيّن الشريف في المنشور أن الهدف من الثورة هو: "نصرة دين الإسلام، والسعي لإعلاء شأن المسلمين... على أساس أحكام الشرع الشريف الذي لا يكون لنا مرجع سواه... في سائر الأحكام"[1].

ومما يؤكد أيضاً أن هدف الثورة تمثل بإعادة الشرعية لدولة الخلافة ما حدث بعد أن قام الاتحاديون بخلع السلطان محمد وحيد الدين عام ١٩٢٣، وإعلان المجلس الوطني التركي قراراً بإلغاء الخلافة وتحويل الدولة العثمانية من دولة إسلامية إلى دولة تركية علمانية، عندها قامت وفود مثلت معظم بلاد العرب في ٤/ آذار/ ١٩٢٤ بمبايعة الشريف حسين بمنصب الخلافة، لتعود بذلك إلى إطارها الشرعي وفق أحكام الشرع الإسلامي الشريف. وبهذه المناسبة أصدر الشريف حسين الذي أصبح يحمل لقب خليفة المسلمين وأمير المؤمنين بياناً جاء فيه: "إن إقدام حكومة أنقرة على إلغاء منصب الخلافة الإسلامية هو الذي جعل أهل الرأي... من علماء الدين... في الحرمين الشريفين والمسجد الأقصى وما جاورهما من البلدان والأمصار يفاجئوننا ويلزموننا ببيعتهم حرصاً على إقامة شعائر الدين وصيانة الشرع المبين"[2].

د. نتائج الثورة:

على الرغم من وجود إرادة ورغبة حقيقية عند الزعامات العربية وعلى رأسها القيادة الهاشمية بتحقيق طموح الثورة المتمثل بدولة الخلافة، إلا أن الفكرة لم تتحقق، ويرجع السبب في ذلك إلى المؤامرة الاستعمارية، حيث أدركت القوى الأوروبية الكبرى منذ وقت مبكر لانطلاق الثورة أن نجاح العرب في تحقيق مشروعهم النهضوي العربي الإسلامي سيؤدي حتماً إلى تجميع عناصر قوة الأمة وعزتها متمثلة بالعروبة وعقيدة الإسلام وزعامة

---

(١) جريدة القبلية، ٢٩/ ذو القعدة ١٣٣٤.

(٢) جريدة القبلية، ٥/ شعبان ١٣٤٢.

بني هاشم آل البيت الكرام. هذه العناصر الثلاثة التي أثبت الواقع التاريخي أنها الأساس السليم لقوة الأمة ونهضتها، كما تأكد ذلك في عهد النبوة والعهد الراشدي والعهدين الأموي والعباسي. كما أدركت القوى الاستعمارية أن نجاح الثورة في إيجاد دولة الخلافة العربية الإسلامية في المشرق العربي كخطوة أولى ستكون نتيجته الحتمية انضمام بقية المناطق العربية والإسلامية في آسيا وإفريقيا لها كخطوة ثانية، وهذا من شأنه إنشاء مركز قوة إسلامي كبير في المنطقة يقضي على المصالح الاستعمارية كافة ويشكل خطرًا على أوروبا في عقر دارها[1].

لذلك تآمروا بالخفاء على هذا المشروع العربي الإسلامي النهضوي من خلال تقسيم المشرق العربي إلى مناطق نفوذ بين بريطانيا وفرنسا والصهيونية وتطبيق مشروع تصفية لقيادة الثورة الشرعية بدءاً بنفي الشريف حسين وإسقاط ملكه في الحجاز بسبب تمسكه بمبادئه وقيمه العربية الإسلامية، ثم توبع تطبيق هذا البرنامج ضد أبنائه وأحفاده ورثة لواء الثورة ومبادئها في كل من بغداد وعمان. الذين قضوا في معظمهم شهداء حقٍ دفاعاً عن عزةِ الأمةِ وكرامتها[2].

هذه هي حقيقة فكر القيادة الهاشمية ورؤيتها التي جسدتها الثورة العربية الكبرى، كثورة سعت إلى إعادة الشرعية إلى دولة الخلافة، بعد أن أخرجها الاتحاديون عن إطارها الإسلامي.

---

(١) أحمد عفيف، التربية الوطنية، ط٢، دار جرير، ٢٠٠٦، ص ٦٨.

(٢) عبد المجيد الشناق، تاريخ الأردن وحضارته، ط٢، عمان، ٢٠٠٠، ص ٢١.